بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 20 سبتمبر 2018

أحـكام الزيـــارة

صلاح الدين العامري
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

أحــكام الزيـــارة[1]

1- يمثّل هذا العمل الفصل الثالث من الباب الأوّل من كتاب "صناعة الذاكرة في التراث الشيعي الاثني عشري"، تأليف: صلاح الدين العامري، ط1، منشورات مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2016، ص ص 191 - 224.

الملخّص:

بعد أن درس المؤلّف في الفصليْن الأوّل والثاني على التوالي قضيّتي «ذاكرة التاريخ وتأريخ الذاكرة» و«مفهوم الزيارة»، خصّص هذا الفصل الثالث للنظر في أحكام الزيارة في الأدبيّات الشيعيّة الاثني عشريّة. وقد استمدّ مادّته النصّيّة من مصدرين أساسيين هما: «كامل الزيارات» لابن قالويه القمّي و«كتاب المزار» للشيخ المفيد. ومن ثمّ رتّب صاحب الفصل عمله على تسعة مباحث متكاملة ومتعاضدة على نحو يمكّن القارئ من الإحاطة الدقيقة بأحكام الزيارة في الفكر الاثني عشري. وفي هذا السياق بيّن المؤلّف أنّ زيارة الحسين واجبة على كلّ مسلم يشهد بالوحدانيّة حتّى إنّها عُدّت من تمام الحجّ. ثمّ عرّج على شروط الزيارة من قبيل التشيّع والاستطاعة. وتكلّم بعد ذلك عن مسألة النيابة في الزيارة وذلك في حالات معيّنة مثل المرض أو عدم القدرة على الركوب. وإذا ما تمّ استيفاء المباحث سالفة الذكر، أمكن بيان مواقيت الزيارة وهي ضربان: المواقيت الزمانيّة (بين شهريْ رجب وصفر)، وفيها تتمّ «زيارة التطوّع» مثلاً، وزيارة رجب وزيارة نصف شعبان وزيارة عاشوراء.... إلخ. أمّا الضرب الآخر من مواقيت الزيارة، فهو الزيارة المكانيّة (الابتداء بنهر الفرات قبل الدخول في شعائر الزيارة الخاصّة بمرقديْ عليّ والحسين). واستعرض الباحث الاستعدادات التي يقوم بها الزائر قصد الزيارة من نحو الاغتسال والإحرام وحسن الصحبة والخشوع والعفّة وغضّ البصر والمشي على القدمين... إلخ. وبيّن بعد ذلك جميعه أنّ أركان الزيارة عديدة من قبيل الإحرام والولاء والبراءة والوداع. وتوقّف المؤلّف عند الأعمال التي يقوم بها الزائر عند حلوله بالمرقد والطواف به. وفضلاً عن ذلك، تمّت الإشارة إلى محظورات الإحرام للزيارة من جهة (مثل الإسراف في تنويع الزاد أو التطيّب)، وإلى أشهر المزارات الشيعيّة من ناحية أخرى (كربلاء، مقبرة البقيع، مَشْهَد...).

******

بعد أن رصدنا ظهور طقوس الزيارة وشعائرها ممارسةً وتنظيراً، عند الشيعة، في الفصل الأوّل، وتتبّعنا تاريخيّة المفهوم في الفصل الثاني، سنسعى، في هذا الفصل، إلى ضبط أحكام الزيارة على غرار أحكام الحج. وسنستنبط هذه الأحكام من (**كامل الزيارات**) و(**كتاب المزار**)، باعتبارهما يعبّران عن وجهة نظر الإخباريين التي لا تتطابق بالضرورة مع الرؤية الفقهيّة. ومعلوم أنّ الصراع بين المدرستين قديم ومتواصل في التاريخ. ونحن لا نطمح إلى تعويض الفقهاء في المسألة، أو الإسهام في مجهوداتهم، وإنّما دفعنا إلى ذلك عدم ضبط هذه الأحكام المنظمة والمبوّبة في المدوّنات الشيعيّة، والاقتصار على إيرادها متناثرة ومقتضبة. واخترنا أن يكون هذا الفصل لعرض المعلومات المتعلقة بأحكام الزيارة وأهم المراقد، دون تحليل، حتى لا نكرّر ما سيذكر في باقي الفصول، ولاسيّما الفصل الأخير من البحث المخصّص للمقارنة بين الزيارة والحج الإسلامي. ونَعدُّ هذا الضبط جانباً من جوانب الإحاطة بالمسألة وتحديد مقوّماتها.

1- المبحث الأوّل: في وجوب الزيارة

تُجمع نصوص المدوّنة على أنّ الزيارة فرض واجب على كلّ مسلم يشهد لله بالوحدانيّة، ولمحمّد بالرّسالة، وعلى كلّ شيعي يدين للعلويين بالولاء. وخصّص ابن قولويه القمي الباب الثالث والأربعين من كتاب (**كامل الزيارات**) لهذه المسألة، تحت عنوان (إنّ زيارة الحسين (ع) فرض وعهد لازم له ولجميع الأئمّة (ع) على كلّ مؤمن ومؤمنة)[1]. وتحدّث الشيخ المفيد عن «وجوب زيارة الحسين (ع)» في مزاره[2]. وأجمع أصحاب الأصول الأربعة على وجوب هذه الزيارة، دون أن يخصّصوا لها باباً مستقلاً على طريقة الإخباريين.

أ- الزيارة فرض على كلّ مسلم:

انطلاقاً من أنّ الإمام، في المنظومة الشيعيّة، باب الإسلام وعلامة الإيمان، جعلت نصوص المدوّنة زيارته وتعهّده واجباً على كلّ مسلم. إنّ حديث ابن قولويه عن وجوب الزيارة على كلّ مؤمن ومؤمنة يخرجها من دائرة المندوب، ويوسّع مجالها لتكون واجبة على كلّ مسلم ومسلمة. وروى عن الصادق قوله: «لو أنّ أحدكم حجّ دهره، ثمّ لم يزر الحسين بن علي (ع) لكان تاركاً حقّاً من حقوق رسول الله (ص)؛ لأنّ حقّ الحسين (ع) فريضة من الله واجبة على كلّ مسلم»[3]. ورَوى عنه المفيد الخبر بصياغة أخرى تؤكّد أنّ الزيارة حقّ الحسين على كلّ مسلم، وربطتها بالحقّ الإلهي، الذي لا فكاك من أدائه، فقال: «لو أنّ أحدكم حجّ

1- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص238.

2- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص37.

3- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص237. ومثله في تهذيب الأحكام للطوسي، ج6، كتاب المزار، ص1991، ح 7106.

دهره، ثمّ لم يزر الحسين بن علي (ع) لكان تاركاً حقّاً من حقوق [الله وحقوق] رسول الله (ص)؛ لأنّ حقّ الحسين (ع) فريضة من الله واجبة على كلّ مسلم»[4]. وفي حديث آخر: هي فرض على كلّ مسلم ومسلمة[5].

ب- الزيارة فرض على كلّ شيعي:

تمثّل زيارة المسلم إلى مراقد الأئمّة علامة مميّزة لتشيّعه؛ لأنّ من الوظائف الأساسيّة لهذا العمل الطقوسي حفظ التشيّع للأئمة العلويين لدى الفرد والجماعة. ورُوي عن جعفر الصادق قوله: «مُروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين (ع)، فإنّ إتيان المرقد مفترض على كلّ مؤمن يقرّ للحسين (ع) بالإمامة من الله عزّ وجلّ»[6]. وفي حديث آخر: «لكلّ إمام عهد في عنق أوليائه وشيعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد، وحسن الأداء، زيارة قبورهم»[7]. وحذّر العديد من الأحاديث من ترك الزيارة، وصنّفت ذلك عقوقاً واستخفافاً بأمر الله، وتوعّدت مرتكبه بالويل والحسرة وانتقاص الإيمان والرزق. وسأل سليمان الحلبي الإمام الصادق عمّن ترك الزيارة، وهو قادر عليها، فقال: «إنّه قد عقّ رسول الله (ص)، وعقّنا، واستخفّ بأمر هو له»[8].

ج- الزيارة فرض على كلّ حَاجٍّ حَجّة الإسلام:

مثّل التجاور المكاني بين مقبرة البقيع والأماكن المقصودة في الحجّ في مكّة والمدينة عاملاً مسهلاً للقرن بين الحجّ وزيارة مراقد الأئمّة بشكل يماثل القرن بين الحجّ والعمرة. وروي عن الإمام الصادق قوله: «تمام الحجّ لقاء الإمام»[9]. وقال المحدّث عباس القمي: «اعلم أنّه يستحبّ استحباباً أكيداً لكافة الناس، ولا سيّما للحجاج، أن يتشرّفوا بزيارة الروضة الطاهرة، والعتبة المنوّرة لمفخرة الدهر مولانا سيّد المرسلين محمّد بن عبد الله (ص)، وترك زيارته جفاء في حقّه يوم القيامة»[10]. ونقل عباس القمي عن الشيخ الصدوق قول الإمام الصادق: «إذا حجّ أحدكم فليختم حجّه بزيارتنا؛ لأنّ ذلك من تمام الحج»[11]، ورُوي عن الإمام علي بن أبي طالب قوله: «تمّموا بزيارة رسول الله حجّكم، فإنّ تركه بعد الحجّ جفاء»[12].

4- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص38.

5- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص237.

6- المرجع نفسه، ص236.

7- المرجع نفسه، ص237.

8- الطوسي، تهذيب الأحكام، ج6، كتاب المزار، ص1990، ح7101.

9- الكليني، أبو جعفر محمّد بن يعقوب، الكافي، مؤسّسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، ط1، 1424هـ/2003م، ص633، ح 8057.

10- القمي، عبّاس، مفاتيح الجنان، تعريب: حسين الأحمدي القمي، تصحيح: أحمد السعيدي وأحمد رضا الفيض، قم، 1428هـ، ص345.

11- المرجع نفسه، ص345

12- المرجع نفسه، ص345.

2- المبحث الثاني: في شروط زيارة الإمام

أ- الشرط الأوّل: التشيّع

لم تفرض نصوص الزيارة شروطاً صارمة على عقيدة الزائر مثل الإسلام أو التشيّع. وتجسّم هذا الإطلاق في الحكم بزيارة غير الشيعة للمراقد، ولاسيّما من أهل السنّة المتعاطفين مع أهل البيت وتاريخهم. ولا توجد نصوص تحرّم زيارة غير المسلم ممّن تكون زيارته ذات بعد ثقافي ومعرفي. ولا شكّ في أنّ هذا التساهل مقصود من قبل الأصوليين لمزيد من التعريف بالعلويين، ومكانتهم عند المسلمين وغيرهم، والدعوة إليهم بالحكمة. ويمكن أن ندرج تغييب مثل هذا النصّ، الذي أكّده فقه الحجّ، بالوظيفة الدعويّة للزيارة. وعلى الرغم من الحاجة إلى الاستقطاب البشري، يجري تأكيد أنّ التشيّع للأئمة العلويين، والإقرار بولايتهم وإمامتهم الإلهيّة، يمثّل شرطاً لتحصيل ثواب الزيارة. ويكتسب العمد والقصد في الزيارة أهميّته من هذه الزاوية. ورُوي عن الصادق قوله في هذا المعنى: «من أتاه شوقاً إليه، وحبّاً لرسول الله، وحبّاً لأمير المؤمنين، وحبّاً لفاطمة [الزهراء] (ع) أقعده الله على موائد الجنّة يأكل معهم والناس في الحساب»[13].

ب- الشرط الثاني: الاستطاعة

لا نكاد نظفر بالخبر اليقين في مسألة الاستطاعة[14]. لكنّ معظم الروايات تجمع على وجوب الزيارة مرّة في العمر، وهو الحدّ الأدنى. وما نستنتجه من سياق الروايات المتعلقة بهذا الشرط أنّ عدم الاستطاعة الماديّة لا تعفي صاحبها من زيارة الإمام. وأقصى ما سمحت به الروايات في التأخّر عنه هو ثلاث سنوات للفقير. وصنّفت تجاوزها عقوقاً لرسول الله[15]. وفي المقابل، تواتر تأكيد وجوبها مرّة في السنة بالنسبة إلى الفقير، ومرّتين للمستطيع. وروي عن الصادق قوله: «حقّ على الغني أن يأتي قبر الحسين (ع) مرّتين، وحقّ على الفقير أن يأتيه في السنة مرّة»[16]. وشرّعت بعض الأخبار للقيام بالزيارة شهريّاً للمستطيع، ومن ذلك قول الصادق لأحد الشيعة: «إن قدرت أن تزوره في كلّ شهر فافعل»[17].

وتجدر الإشارة إلى وجود حديث واحد يوحي مضمونه بإمكانيّة ترك الزيارة عند الاستحالة في خبر منسوب إلى أبي الحسن، قال فيه لأحد السائلين: «لا تجفوه، يأتيه الموسر في كلّ أربعة أشهر، والمعسر لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها»[18]. والذي نخلص إليه، حول مسألة الاستطاعة، عدم جواز ترك الزيارة مهما كان

13- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص270.
14- [آل عمران: 97].
15- المرجع نفسه، ص494-495.
16- المرجع نفسه، ص490.
17- المرجع نفسه، ص493.
18- المرجع نفسه، ص491.

السبب، ولاسيّما أنّ بعض الأحاديث فتح المجال أمام الزائر ليزور إمامه من بعيد؛ أي يزوره روحيّاً، كما سنبيّن لاحقاً في أنواع الزيارة.

ج- في أنواع الزيارة:

مكّنت نصوص المدوّنة الزائر من طريقتين لزيارة إمامه. وقد راعت في ذلك مسألة الاستطاعة التي تتعلّق بمكان إقامة الزائر، ووضعه الصحّي، والأمني، والمادي. وكان لا بدّ من أن تخصّ شيعة القرون الخمسة الأولى بحلول تضمن في الوقت نفسه سلامتهم الجسديّة وتواصل ولائهم لأئمّتهم.

الزيارة من قريب[19]: يمثّل الحضور إلى قبور الأئمّة هدفاً أساسيّاً للزيارة. وقد حثّت المرويّات على إتيانها، وتجشّم السفر إليها، ورغّبت فيه بأساليب متنوّعة. وروي عن الصادق قوله في هذا السياق: «مروا شيعتنا بزيارة قبر الحسين، فإنّ إتيانه مفترض على كلّ مؤمن يقرّ للحسين (ع) بالإمامة»[20]. ومن بين المغريات، التي تحفّز الزائر لإتيان القبر لقاؤه بالله، وبالملائكة، وبالأنبياء والرسل. ويسهّل هذا الإطار إمكانيّة حلول الزائر في الأزمنة الأكثر قداسة في التاريخ الدّيني. ورُوي عن الصادق قوله لأحد الشيعة: «ألا تزوروا من يزوره الله تعالى مع الملائكة، ويزوره الأنبياء، ويزوره المؤمنون»[21]؟ وروي عنه في حديث آخر قوله: «فإذا زرت جانب النجف، فزُر عظام آدم، وبدن نوح، وجسم علي بن أبي طالب (ع)، فإنّك زائر الآباء الأوّلين، ومحمّد (ص) خاتم النبيين، وعليّاً سيّد الوصيّين، فإنّ زائره تفتح له أبواب السماء عند دعوته»[22].

الزيارة من بعيد: استجابت أحكام الزيارة الواردة في نصوص المدوّنة إلى طبيعة الخارطة البشريّة لتوزّع الشيعة بين الأمصار. فبسبب حالة الشتات التي عاشوها، وانتشارهم في مناطق بعيدة عن المركز الروحي بالعراق، مثل اليمن، وخراسان، والغرب الإسلامي، أباحت الأخبار المرويّة عن الأئمّة إمكانيّة الزيارة من بعيد. ونلمس هذا المعنى في قول مالك الجهني للإمام الباقر: «جُعلت فداك فما لمن كان في بُعد البلاد وأقاصيها، ولم يمكنه المسير إليه في ذلك اليوم [يقصد عاشوراء]؟ قال: إذا كان اليوم برز إلى الصحراء، أو صعد سطحاً مرتفعاً في داره، وأومأ إليه بالسلام، واجتهد على قاتله بالدعاء، وصلّى بعده ركعتين. يفعل ذلك في صدر النهار قبل الزوال، ثمّ ليندب الحسين (ع)، ويبكيه، ويأمر من في داره بالبكاء

19- اخترنا استعمال عبارة الزيارة «من قريب»، للتعبير عن الزيارة المباشرة، وعبارة الزيارة «من بعيد»، للتعبير عن الزيارة غير المباشرة، لورود العبارتين في أخبار المدوّنة.

20- المرجع نفسه، ص236.

21- المرجع نفسه، ص89.

22- المرجع نفسه، ص91.

عليه، ويقيم في داره مصيبته بإظهار الجزع عليه، ويتلاقون بالبكاء بعضهم بعضاً بمصاب الحسين (ع)، فأنا ضامن لهم إذا فعلوا ذلك على الله عزّ وجلّ جميع هذا الثواب»[23].

ويعتذر الزائر عن تأخّره عن إتيان المشهد من أعلى المكان الذي صعده قائلاً: «أنا زائرك يا بن رسول الله بقلبي ولساني وجوارحي، وإن لم أزرك بنفسي والمشاهدة لقبّتك»[24]. وخصّ ابن قولويه المسألة بباب مستقلّ تحت عنوان (من نأتْ داره وبعدت شقّته كيف يزوره (ع))[25]؟ وتُعدّ هذه الإجازة تطبيقاً للقول المتداول في الأوساط الشيعيّة: «كلّ يوم عاشوراء وكلّ أرض كربلاء». ولئن نسب التداول الشيعي هذا القول إلى جعفر الصادق، فإنّ المطهّر الحلّي (ت 726هـ/1251م) شكّ في صحّة السند. وبنى الحلّي موقفه على بعض أقوال الإمام الصادق المعارضة لهذا المعنى، ومنها قولهم: «لا يوم كيوم قتل الحسين»[26]، الذي لا يعكس حقيقة أيام أخرى يعرفها المسلم مثل يوم القيامة. وقد أسهمت هذه النصوص الموجزة في ترسيخ الشعائر الحسينيّة على مرّ التاريخ الشيعي، وبناء الذاكرة الجمعيّة وحفظها.

3- المبحث الثالث: النيابة في الزيارة

خصّ ابن قولويه باباً لهذه المسألة بعنوان (ثواب من زار الحسين (ع) بنفسه، أو جهّز إليه [له] غيره). ويمثّل تجهيز الزائر تكليفاً له بالنيابة في الزيارة لعلّة أصابته، كالمرض، أو عدم القدرة على الركوب، أو غيره. ولا ينقص ذلك من ثوابه شيء. وقد سأل أحدهم الإمام الصادق في هذا المعنى: «ما لمن يجهّز إليه، ولم يخرج لعلّة تصيبه؟ قال: يعطيه الله بكلّ درهم أنفقه مثل أُحد من الحسنات، ويخلف عليه أضعاف ما أنفقه، ويصرف عنه من البلاء ممّا قد نزل ليصيبه، ويدفع عنه، ويحفظ في ماله»[27].

وإذا مُنع الزائر من إتيان قبور الأئمّة لموت أو لسجن من قبل السلطان، أو غيرها من القوى المانعة، فإنّ الله يسخّر له ملائكة تنوبه، فيحصّل ثواب ما كان يريد أن يأتيه من أعمال. فمع أوّل قطرة من دم الزائر القتيل تغفر ذنوبه، وتُطهّر طينة خلقه، مثلما طُهّرت طينة الأنبياء، ويُغسل قلبه، ويشرح صدره للإيمان، ويُخَلَّص ألفاً من إخوانه وأهله، ويُؤتى السّجين بكلّ يوم يُحبس فيه فرحة إلى يوم القيامة. وإن ضُرب تأتي الملائكة بضاربه، ويلقى به في نار جهنّم، حتى يُشفى غليل الزائر المضروب في سبيل الحسين[28]. وأمّا في مستوى الممارسة الشعبيّة، فيعتقد الزائر أنّ بإمكانه استحضار نيّة الزيارة نيابة عن الأولياء والأنبياء وذوي

23- المرجع نفسه، ص326. ورواه الطوسي في مصباح المتهجّد، ص772.

24- المرجع نفسه، ص484.

25- المرجع نفسه، ص480.

26- الحلّي، جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر، نهج الحقّ وكشف الصدق، منشورات دار الهجرة، إيران، ط4، 1414هـ، ص356.

27- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص240.

28- المرجع نفسه، ص ص240-241.

الأرحام، وفاءً لهم. وتمثّل هذه الممارسة الحرّة أداة للاستئناس بما يؤدّيه الزائر من طقوس، وما يضفيه استحضار هذه الشخصيّة الرمزيّة من مشروعيّة على الزائر والمزور.

ولم تغفل نصوص المدوّنة هذه المسألة، فأجازت المرويّات، التي أوردها المفيد في مزاره، التطوّع بالزيارة عن الأئمة، وعن أهل الإيمان، والتطوّع عن الإخوان والوالدين. وقال صاحب المزار في هذا الإطار: «فإذا زرت عن أبيك وأخيك وأمّك تطوّعاً، فسلّم على الإمام على نسق التسليم، فإذا فرغت فصلِّ ركعتين، فإذا سلّمت منهما، فاسجد، وقل في سجودك: اللهم قد جعلت ثواب صلاتي وسلامي وزيارتي هذه، هاتين الركعتين هديّة منّي إلى -فلان بن فلان- فتقبّل ذلك منّي، وأجرني عليه خير الجزاء برحمتك يا أرحم الرّاحمين، إنّك على كلّ شيء قدير»[29].

4- المبحث الرابع: في مواقيت الزيارة

الميقات: هو ما حُدّد للعبادة من مكان وزمان. والتوقيت: التحديد[30]. والمواقيت في الزيارة نوعان:

أ- المواقيت الزمانيّة:

يمثّل شهر محرّم مدار الزمن المقدّس عند الشيعة؛ ففي أوّله قتل الحسين، وعلى كامله يستمرّ الحزن ليمتدّ على جزء من شهر صفر؛ حيث يُحتفل بمرور أربعين يوماً عن المقتل. وتتأسّس قداسة محرّم عند الشيعة على ما شهده الشهر من أحداث قدّسوها نتيجة أهميتها في تاريخ الخط التوحيدي عامةً، وتاريخ التشيّع خاصّة. يقول الشيخ الطوسي في محرّم: «هو آخر أشهر الحرم: عظيمة حرمته في الجاهليّة والإسلام، أوّل يوم منه استجاب الله تعالى دعوة زكريا عليه السلام، وفي اليوم الثالث منه كان خلاص يوسف من الجب على ما روي في الأخبار، وفي اليوم الخامس منه كان عبور موسى بن عمران عليه السلام البحر، وفي اليوم السابع منه كلّم الله تعالى موسى على جبل طور سيناء، وفي اليوم التاسع منه أخرج الله تعالى يونس من بطن الحوت، وفي اليوم العاشر منه كان فيه مقتل سيدنا أبي عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام»[31].

ويأتي هذا الشهر في ترتيب أشهر السنة القمريّة بعد شوال، وذي القعدة، وذي الحجّة، وهي أشهر الحجّ، التي ثبّتها الفقهاء استناداً إلى قوله تعالى: **{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ} [البَقَرَة: 197]**. وقد جعلت نصوص المدوّنة زيارة الحسين ممتدّة على ثمانية أشهر من السنة بدءاً برجب، وصولاً إلى شهر صفر.

29- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص181.

30- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (وقت)، ص162.

31- الشيخ الطوسي، مصباح المتهجد، ص771.

وينقسم ميقات الزيارة إلى نوعين: نوع أوّل يمكن أن نطلق عليه «زيارة التطوّع»، ويمكن أن يقوم بها الفرد يوميّاً أو شهريّاً. وروى الشيخ المفيد فيها: «فإذا عزمت إن شاء الله تعالى على الخروج، فاختر يوماً له، وليكن اختيارك واقعاً على أحد ثلاثة أيام، يوم السبت، أو يوم الثلاثاء، أو يوم الخميس»[32]. وجعل ابن قولويه لهذا النوع باباً تحت عنوان (ثواب من زار الحسين (ع) في غير يوم عيد، ولا عرفة)[33]. ويمكن أن نطلق على النوع الثاني (زيارة الواجب)، وهي زيارة مقرونة بزمن لا اختيار للزائر في تحديده. ومن الزيارات:

زيارة رجب[34]:

رجب من الأشهر المرتبطة بقداسة شهر رمضان. ويزور فيه المسلم الشيعي قبر الحسين تعظيماً لصاحبه، واستجابة لأمر الأئمة من بعده. وتجب الزيارة في أوّل الشهر ومنتصفه. ورَوَى المفيد عن الإمام الصادق قوله: «من زار الحسين بن علي (ع) أوّل يوم من رجب غفر الله له البتّة»[35]. وقال أحمد بن محمّد بن أبي نصر: «سألت أبا الحسن الرضا (ع) في أيّ شهر نزور الحسين (ع)، قال: في النصف من رجب والنصف من شعبان»[36].

زيارة النصف من شعبان:

يمثّل شهر شعبان وليلة النصف منه مناسبة مهمّة في سلّم الزمن المقدّس عند المسلمين. وبناء على هذه الخصوصيّة، أكّدت الذاكرة الشيعيّة أهميّة زيارة الحسين في غمارها، وجعلت الشهر مناسبة لتحصيل الخلاص. وروي عن الإمام الصادق قوله في هذه المناسبة: «ليلة النصف من شعبان نادى منادٍ من الأفق الأعلى: زائري الحسين ارجعوا مغفوراً لكم، ثوابكم على ربّكم ومحمّد نبيّكم»[37]. وروي عنه أيضاً قوله: «من أحبّ أن يصافحه مئة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي، فليزر قبر أبي عبد الله الحسين بن علي (ع) في النصف من شعبان، فإنّ أرواح النبيين (ع) يستأذنون الله في زيارته، فيؤذن لهم، منهم خمسة أولو العزم من الرسل، قلنا: من هم؟ قال: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد، صلّى الله عليهم أجمعين. قلنا: ما معنى أولي العزم؟ قال: بُعثوا إلى شرق الأرض وغربها، جنّها وإنسها»[38]. ومن أعمال ليلة النصف

32- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص64.

33- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص340.

34- ينظر قيمة هذا الشهر في: العسقلاني، ابن حجر، تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب، تحقيق وتعليق إبراهيم بن إسماعيل، (د.ط)، (د.ت).
ابن خلال، أبو محمد الحسن بن محمّد بن الحسن (ت 439هـ)، فضائل شهر رجب، تحقيق عبد الرحمن بن يوسف، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1416هـ/1996م.

35- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص48.

36- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص339.

37- المرجع نفسه، ص333.

38- المرجع نفسه، ص334.

من شعبان قراءة سورة الإخلاص ألف مرّة، والاستغفار ألف مرّة، والحمد ألف مرّة، والصلاة أربع ركعات بقراءة لآية الكرسي ألف مرّة.

زيارة ليلة القدر:

ليلة القدر خير من ألف شهر في القرآن[39]. وهي الليلة التي نزل فيها القرآن، وفيها ينفتح باب العرش، ويتحقّق الخلاص الدنيوي والأخروي[40]. ويجب على المسلم الشيعي أن يزور قبر الحسين لنيل هذا الجزاء. ورُوي عن الصادق قوله في هذا المعنى: «إذا كان ليلة القدر، وفيها يُفرق كلّ أمر حكيم، نادى منادٍ تلك الليلة من أطراف العرش: إنّ الله تعالى قد غفر لمن أتى قبر الحسين (ع) في هذه الليلة»[41]. وتمثّل هذه الزيارة مناسبة للثأر من أعداء الأئمة من الأمويين، وكشف حقيقتهم للناس[42].

زيارة ليلة الفطر:

تمثّل هذه الليلة خاتمة شهر الصيام. ويعتقد الزائر الشيعي أنّه مثلما يكون جزاء الصيام لا يقدّر إلّا من قبل الله، وأنّه يجزي به من يشاء، فإنّ زيارة الحسين، في مثل هذه الليلة، فيها من الأجر والثواب ما لا يقدر الزائر على تصوّره. ويعتقد بعض من التقيناهم، أيضاً، بأنّ الحسين صنوٌ لهذا الشهر الذي نزل فيه ما يصلح به الناس، ويستقيم أمرهم؛ فالقرآن أصلح به الله أحوال العباد، وأخرجهم من غياهب الظلمات، والحسين أعاد بدمه الإسلام الصحيح إلى موضعه، بعد أن انحرف مساره مع الأمويين. وأمّا نصوص المدونة، فربطتها بالمغفرة الشاملة لكلّ ذنوب الزائر مهما تعاظمت. وروى المفيد عن عبد الرحمن بن الحجاج قوله: «قال أبو عبد الله (ع): من زار قبر الحسين بن علي (ص.ع) ليلة من ثلاث [ليال] غفر [الله] له ما تقدّم وما تأخّر. [قال:] قلت: أيّ الليالي جعلت فداك؟ قال: ليلة الفطر، أو ليلة الأضحى، أو ليلة النصف من شعبان»[43].

39- [القدر: 3].

40- الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، شركة مكتبة الألفين، الكويت، 1427هـ/ 2006م، ج5، ص170.

41- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص61. «أُري رسول الله صلّى الله عليه وآله في منامه أنّ بني أميّة يصعدون على منبره من بعده، ويضلّون النّاس على الصراط القهقرى، فأصبح كئيباً حزيناً. قال: فهبط عليه جبرائيل، فقال: يا رسول الله صلّى الله عليه وآله ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ قال: يا جبرائيل إنّي رأيت بني أميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط القهقرى، فقال: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّي ما اطّلعت عليه، فعرج إلى السماء، فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها، قال: أفرأيت أنْ متّعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون، وأنزل عليه: {إنّا أنْزَلناهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ *وَما أدْراكَ ما لَيْلَةُ القَدْرِ *لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ ألفِ شَهْرٍ} [القدر: 1-3]. جعل الله ليلة القدر لنبيه صلّى الله عليه وآله خيراً من ألف شهر من ملك بني أمية، وفي معناه إخبار آخر عن القمّي قال: أري رسول الله صلّى الله عليه وآله كأنَّ قروداً تصعد منبره، فغمّه ذلك، فأنزل الله سورة القدر {لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ ألفِ شَهْرٍ} [القدر: 3] تملكه بنو أميّة ليس فيها ليلة القدر.

42- جاء، في تفسير الصافي، عن الصادق في تفسير {لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ ألفِ شَهْرٍ}: أُري رسول الله صلّى الله عليه وآله في منامه أنّ بني أميّة يصعدون على منبره من بعده، ويضلّون النّاس على الصراط القهقرى، فأصبح كئيباً حزيناً، قال: فهبط عليه جبرائيل، فقال: يا رسول الله صلّى الله عليه وآله ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ قال: يا جبرائيل إنّي رأيت بني أميّة في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلّون الناس عن الصراط القهقرى، فقال: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً إنّي ما اطّلعت عليه، فعرج إلى السماء، فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها. قال: أفرأيت أنْ متّعناهم سنين، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون، وأنزل عليه: {إنّا أنْزَلناهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ *وَما أدْراكَ ما لَيْلَةُ القَدْرِ *لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ ألفِ شَهْرٍ}. جعل الله ليلة القدر لنبيّه صلّى الله عليه وآله خيراً من ألف شهر من ملك بني أمية، وفي معناه إخبار آخر فيه في غيره القمّي قال: أري رسول الله صلّى الله عليه وآله كأنَّ قروداً تصعد منبره فغمّه ذلك، فأنزل الله سورة القدر {إنّا أنْزَلناهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ *وَما أدْراكَ ما لَيْلَةُ القَدْرِ *لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ ألفِ شَهْرٍ} تملكه بنو أميّة ليس فيها ليلة القدر.

43- المرجع نفسه، ص53.

زيارة عاشوراء:

عاشوراء نسبة إلى العاشر من محرّم اليوم الذي وافق مقتل الإمام الحسين في كربلاء. وتمثّل هذه الزيارة تتويجاً لعشرة أيام من التردّد على قبر الحسين، والبكاء عليه. وفي هذا اليوم يجتمع العدد الأكبر من الزوّار، سواء من قريب أم من بعيد. ويضاهي عدد الزوار في هذه السنوات، مثلاً، عدد الحجاج في مكة؛ أي نحو ثلاثة ملايين. ويعتقد الزائر الشيعي بأنّه يتمكّن من مصاحبة الحسين كما لو كان معه يوم الطفّ في هذا اليوم.

ولا يجوز التأخّر عن هذه الزيارة لأيّ سبب من الأسباب سواء من قريب أم من بعيد. وجعلت نصوص المدوّنة ثوابها مماثلاً لثواب الشهادة مع الحسين. وروى ابن قولويه عن الصادق وصفه لزوّار عاشوراء: «هؤلاء زوّار الله، وحقّ على المَزور أن يُكرم الزائر، من بات عند قبر الحسين (ع) ليلة عاشوراء لقي الله يوم القيامة ملطّخاً بدمه كأنّما قتل معه في عرصته»[44]. ويتضاعف ثواب الأعمال في هذه المناسبة بشكل لا يقدر الزائر على مقاومة إتيانها. وروي عن الصادق قوله: «من زار الحسين (ع) يوم عاشوراء حتى يظلّ عنده باكياً لقي الله عزّ وجلّ يوم القيامة بثواب ألفي ألف حجّة، وألفي ألف عمرة، وألفي ألف غزوة، وثواب كلّ حجة وعمرة وغزوة كثواب من حج، واعتمر، وغزا مع رسول الله (ص)، ومع الأئمة الراشدين (ع)»[45].

زيارة الأربعين:

توافق هذه الزيارة اليوم الأربعين من يوم مقتل الحسين في كربلاء. وتذكر المصادر الشيعيّة أنّ في تاريخ هذه المناسبة جُمع الرأس بالجسد، بعد أن طاف بين العراق وبلاد الشام. ويعتقد الشيعة بأنّ مشروعيّة زيارة هذا اليوم أسّسها علي بن الحسين (الإمام السجّاد) عند رجوعه من الشام، وتوجهه مع قافلة السبايا إلى المدينة، مروراً بالعراق. وقد جعلت بعض روايات الشيخ المفيد حضور هذه الزيارة علامة من علامات الإيمان. ورُوي عن الإمام العسكري قوله: «علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين[46]، وزيارة الأربعين، والتختّم في اليمين، وتعفير الجبين، والجهر بسم الله الرحمن الرحيم»[47].

44- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص323.

45- المرجع نفسه، ص323.

46- صلاة الإحدى والخمسين: هي الفرائض اليومية التي تُصلّى، ومجموعها سبع عشرة ركعة. يُضاف إليها نوافل الصلاة المستحبة، وعددها أربع وثلاثون ركعة، وتفصيلها: ثماني ركعات قبل الظهر، وأربع ركعات بعد الظهر، وأربع ركعات بعد العصر، وأربع ركعات بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، ولكن من جلوس (وتعدّان ركعة واحدة)، ومعها إحدى عشرة ركعة عند السحر، وهي صلاة الليل، وركعتان للفجر، وبهذا تصبح خمسين صلاة. يُنظر في السياق: الطوسي، أبو جعفر بن محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد، ص788.

47- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص60.

زيارة عرفة:

مثّل هذا اليوم، الذي يقف فيه الحاج بجبل عرفات، تمام الحجّ عند المسلمين. وفيه قال الرسول (ص): «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنّه ليدنو ثمّ يباهي بهم الملائكة»[48]. وتشجّع المرويّات عن الأئمّة على زيارة الحسين في مثل هذا اليوم المهيب عند المسلمين للتعريف أمام قبره. رُوي عن الصادق قوله: «من كان معسراً فلم تتهيّأ له حجّة الإسلام، فليأتِ قبر أبي عبد الله (ع)، وليعرّف [من عرفة] عنده، فذلك يجزيه عن حجّة الإسلام»[49]. وقد جعلت بعض المرويّات الواقفين عند قبر الحسين، في مثل هذا اليوم، أعظم درجة وثواباً، باعتبار أنّ الله يقضي حوائجهم قبل الواقفين بعرفة. ورُوي عن الصادق في هذا المعنى: «إنّ الله تبارك وتعالى يتجلّى لزوّار قبر الحسين (ع) قبل أهل عرفات، ويقضي حوائجهم، ويغفر ذنوبهم، ويشفّعهم في مسائلهم، ثمّ يثنّي بأهل عرفات فيفعل بهم ذلك»[50].

ب- المواقيت المكانيّة:

لم نجد في نصوص المدوّنة أحكاماً صريحة للمواقيت المكانيّة، كما هو الشأن للمواقيت الزمانيّة. ولا شكّ في أنّ نصوص هذه المرحلة التاريخيّة للمذهب الإمامي كانت تراعي طبيعة الانتشار الشيعي في الأمصار، وكانت تعي أيضاً السريّة المحيطة بأداء هذه الشعائر. وعلى الرغم من هذا الإطلاق، فإنّنا نلمس تأكيد ضرورة البدء بنهر الفرات، قبل الدخول في شعائر الزيارة المتعلقة بمرقدي الإمامين علي والحسين بين النجف وكربلاء. وقال المفيد: «فإذا وردت إن شاء الله أرض كربلاء، فانزل منها بشاطئ العلقمي، ثم اخلع ثياب سفرك، واغتسل منه غسل الزيارة»[51].

5- المبحث الخامس: في استعداد الزائر للزيارة:

إذا قرّر الزائر التوجّه إلى أحد المشاهد، ولاسيّما مشهد الحسين في كربلاء، وجب عليه القيام بالأعمال الآتية:

أ- الاغتسال:

إنّ خروج الزائر للقاء الإمام يستوجب الطهارة. والطهارة في التقاليد الإسلاميّة تتمّ بالغسل. وقد اشترطت أخبار المدوّنة أن تتمّ هذه العمليّة على شاطئ الفرات. وسأل رجلٌ الإمام الصادق حول الطهارة،

48- الكليني، الكافي، ص570، ح624.
49- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص55.
50- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص309.
51- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص90.

فقال: «ما لمن اغتسل من ماء الفرات ثمّ أتاه؟ قال: إذا اغتسل من ماء الفرات، وهو يريده، تساقطت عنه خطاياه كيوم ولدته أمه»[52]. وقال محمّد القمّي: «قال أبو الحسن موسى عليه السلام: أدنى ما يُثاب به زائر الحسين عليه السلام بشاطِئ الفُرات إذا عرف حَقّه، وحُرمته، وولايته، أن يغفر ما تقدَّم من ذَنبه وما تأخّر»[53].

ب- الإحرام:

هو اللّباس الخاص بالحاج في الإسلام. ولئن كانت نصوص المدوّنة لا تشترط على الزائر نوعاً خاصّاً من الثياب مقابل اشتراط طهارته، فإنّنا لاحظنا ميلاً إلى لباس اللّون الأسود من قبل النساء خاصةً. واللون الأسود هو من تقاليد المذهب الشيعي عامّة، والإمامي خاصّة. ويوجد اللون الأبيض المميّز لثياب الإحرام للحجّ بين الزائرين العرب خاصّة. وكان بعض الشيعة يرتدون البياض أيضاً[54]. ولا شكّ في أنّ الزوّار، الذين حضروا شعائر الحجّ في مكّة، يجدون انسجاماً مع اللباس الذي أحرموا به.

ج- حسن الصحبة:

يمثّل هذا الشرط مكوّناً أساسيّاً في السلّم الأخلاقي القيمي العربي والإسلامي. إنّ الشيعي الزائر يَعدّ تنقله إلى مراقد الأئمة خروجاً إلى العبادة. ويحتاج الخارج إلى من يعينه على ما هو عازم عليه، ولاسيّما إذا كانت الطريق طويلة.

د- الخوف والخشوع:

تمثّل هذه الحالة النفسيّة وجهاً من وجوه توقير المَزور والولاء له. وقد اشترطت نصوص المدوّنة هذا الموقف لما له من دور في تكثيف حالة القداسة، والانسجام مع طبيعة العمل الطقوسي داخل المرقد، والإخلاص في أدائه. وقد ربطت ذلك بأجور لا تحصى. وروي عن الصادق قوله: «إذا أردت زيارة الحسين (ع)، فزره وأنت كئيب حزين مكروب شعث مغبر، جائع عطشان، فإنّ الحسين قتل حزيناً مكروباً شعثاً مغبراً جائعاً عطشانَ»[55].

52- القمي، ابن قولويه، كامل الزيارات، ص ص240-241.

53- المرجع نفسه، ص ص241-242.

54- أورد الثعالبي أنّ الشيعة كانوا يرتدون اللون الأبيض، على الرغم من اشتهارهم باللونين الأسود والأخضر. يتيمة الدهر، ج3، ص27.

55- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص252.

هـ- قلّة الكلام إلّا في ذكر الله:

يعتقد الزائر بأنّ المزار وصاحبه فضاء للقداسة المطلقة. ويتطلّب هذا الفضاء الانضباط السلوكي، والوقار، والسكينة. وروي عن الصادق قوله: «إذا زرت أمير المؤمنين (ع)، فاعلم أنّك زائر عظام آدم، وبدن نوح، وجسم علي بن أبي طالب [...]، فإنّك زائر الآباء الأوّلين»[56]. وتؤكّد بعض المرويّات أنّ الله وملائكته وأنبياءه يزورون الحسين. وزيارة الحسين فرصة المؤمن ليلقى الله ويكلّمه، وتصافحه الملائكة، وتدعو له[57].

وقد استفادت أخبار الزيارة في المدوّنة من آداب الحجّ، التي ضبطها الفقه الإسلامي، واقترحت على الزائر ما افترض على الحاج. وروى الفيض الكاشاني عن الصادق قوله في هذا الاتجاه: «إذا أحرمت، فعليك بتقوى الله، وذكر الله كثيراً، وقلة الكلام إلّا بخير، فإنّ من تمام الحجّ والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلّا من خير، كما قال الله تعالى: **{فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الْحَجِّ} [البَقَرَة: 197]**[58].

و- العفة وغضّ البصر:

بحكم وجوب الزيارة على الذكر والأنثى، واجتماعهما في حضرة الإمام، ينطبق على الزائر حكم الحاجّ حجّة الإسلام، فلا رفث ولا فسوق. وروى الفيض الكاشاني: «عن الصادق عليه السلام: الرفث: الجماع، والفسوق: الكذب والسباب، والجدال: قول الرجل: لا والله، وبلى والله»[59]. وكلّ التزام من هذا النوع يكرّس صلاح الزائر، ووقار المزور. وإنّ المزور، في هذا الفضاء، هو الذاكرة الدينيّة التوحيديّة فيها الله، والملائكة، والأنبياء.

ز- خدمة الناس:

يلتزم الزائر ألّا يؤذي أحداً بلسانه، أو يده، ولا يزاحم الزائرين، ولا يجادلهم إلّا بالتي هي أحسن. ويساعدهم ما استطاع، وأن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. ومن مظاهر هذا الالتزام اصطفاف المتطوّعين لإرشاد الزوار، ومساعدتهم بما يحتاجون إليه من أكل، وشرب، وإنفاق على الموائد. وأتاحت نصوص المدوّنة إمكانيّة خدمة الناس بتجهيز الزائر، والإنفاق على سفره. ويستحبّ أن يساعد المسافر للزيارة كلّ ذي حاجة في الطريق، والتصدّق على أهل المكان الذي وجد فيه المرقد. وسأل ابن سنان جعفر الصادق في هذا الإطار، فقال: «فما لمن يُنفق في المسير إلى أبيك الحسين عليه السلام؟ فقال: يا بن سِنان

56- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص33.

57- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص231.

58- الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج1، ص105 [البقرة: 197].

59- المرجع نفسه، ج1، ص105.

يُحْسَب له بالدّرهم ألفٌ وألف - حتّى عَدَّ عَشرَة -، ويرفع له من الدَّرجات مثلها، ورضا الله تعالى خيرٌ له، ودعاءُ محمّد، ودعاءُ أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام خَيرٌ له»[60]. ولا تستثنى من هذا الإحسان عائلة الزائر، فهو مُطالب بتوفير حاجاتها قبل السفر. ويُعَدّ كلّ إنفاق في هذه الحالة صدقات في صحيفة الزائر.

ح- التقيّة:

التّقية: اسم لـ: اتّقى يتّقي، والتاء بدل من الواو كما في التّهمة والتّخمة. أمّا اصطلاحاً، فهي التحفّظ عن ضرر الغير بموافقته في قول، أو فعل مخالف للحقّ[61]. وعرّفها الشيخ المفيد بأنّها «كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، ومكاتمة المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين والدنيا [...] وقد أمر الصادقون -عليهم السلام- جماعة من أشياعهم بالكفّ والإمساك عن إظهار الحق، والمباطنة والستر له عن أعداء الدين، والمظاهرة لهم بما يزيل الريب عنهم في خلافهم»[62]. وروى الطوسي في (**أماليه**) عن الإمام الصادق قوله: «ليس منّا من لم يلزم التقيّة، ويصوننا عن سفلة الرعيّة»[63]. والتقيّة تقليد أساسي في سلوك المسلم الشيعي يلجأ إليه عند حالات الضعف والخوف[64]. والهدف من التقيّة، في هذا الظرف، هو حماية الزائر من أذيّة المخالفين في المراحل الأولى خاصّةً من تاريخ التشيّع؛ ففيها لاقى الشيعة تضييقاً من قبل الجانبين الرسمي والشعبي، وتعرّضوا إلى صنوف من التهديد ولاسيّما فيما يتعلّق بالتواصل مع المراقد. وتجدر الإشارة إلى أنّ أغلب الفرق الإسلاميّة قد مارست هذا السلوك[65] لأسباب متنوّعة، لعلّ من أبرزها العامل السياسي.

ط - المشي على القدمين:

حثّت نصوص المدوّنة على التعب والمعاناة في زيارة الحسين؛ لأنّ التضحية من أجل الشيء تعلّم الإخلاص له، والوفاء. وقد جرى احتساب الخطوات التي يقطعها الزائر في اتجاه المرقد، ومعادلتها بأجور كثيرة. ورُوي عن الإمام الصادق قوله: «إنّ لله ملائكة موكّلين بقبر الحسين (ع)، فإذا همّ بزيارته الرجل أعطاهم الله ذنوبه، فإذا خطا محوها، ثمّ إذا خطا، ضاعفوا له حسناته، فمازالت حسناته تتضاعف حتى توجب له الجنة، ثمّ اكتنفوه، وقدّسوه، وينادون ملائكة السماء أن قدّسوا زوّار حبيب حبيب الله»[66].

60- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص248.

61- الأنصاري، مرتضى، التقيّة، تحقيق فارس الحسون، مركز الأبحاث العقائديّة، قم، 1410هـ، ص36.

62- الشيخ المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص137.

63- الطوسي، كتاب الأمالي، ص281.

64- للتوسّع انظر: العزومي، محمّد خميس، التقيّة ضوابط وأحكام، دار الصفوة، بيروت، 2009م، ص9.

65- انظر في هذا السياق: مكارم، سامي، التقيّة في الإسلام، مؤسّسة التراث الدرزي، بيروت، 2004م، ص12.

66- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص254.

ويعتقد الشيعة بأنّ المشي إلى المراقد من الشعائر التي درج عليها الأسلاف. وأوّل من مشى إلى قبر الحسين الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري يوم الأربعين. وتستعيد مواكب العزاء الحسيني في العراق وغيرها من الدول هذه الشعيرة، فتتجه مواكب المشي نحو المراقد لمسافات طويلة. ورُوي عن الإمام الصادق: «من أتى قبر الحسين (ع) ماشياً كتب الله له بكلّ خطوة ألف حسنة»[67]. ولم تستثنِ نصوص المدوّنة مَن بعدت عليه الشقة، ونأت به الدار، فاستعمل وسيلة نقلٍ، من الثواب، وباركتهم لبعد المسافة. قال جعفر الصادق لأحد الزوار: «تزورون الحسين (ع) وتركبون السفن؟ فقال: نعم. قال: أما علمت أنّها إذا انكفأت بكم نوديتم: ألا طبتم وطابت لكم الجنّة»[68]. وقد أتيح لنا معاينة طريق البصرة - كربلاء في العراق، ولاحظنا اصطفاف الخيام على جانبيه لتقديم الأكل والشرب للزوار على مسافة (550) كم تقريباً. وأخبرنا بعض العراقيين أنّهم يتعمّدون هذا المشي، ويتحمّلون تعبه وفاء واحتساباً.

ي- آداب الطريق:

المقصود بها مجموعة الأعمال التي يلتزمها الزائر وهو في طريقه إلى المرقد. وتندرج هذه الآداب ضمن آداب السفر في الثقافة الإسلاميّة عامّة. وتتكوّن في أغلبها من مجموعة أدعية. وقد جعلها الشيخ المفيد في أبواب مستقلة:

- **دعاء الخروج:** يقول الزائر: «اللّهم إنّي أستودعك الساعة نفسي، وأهلي، ومالي، وديني، ودنياي، وآخرتي، وخاتمة عملي. اللّهم احفظ الشاهد منّا والغائب. اللّهم احفظنا واحفظ علينا، اللّهم اجعلنا في جوارك، اللّهم لا تسلبنا نعمتك، ولا تغيّر ما بنا من عافيتك وفضلك»[69].

- **دعاء الركوب:** يقول الزائر: «الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وعلّمنا القرآن، ومنّ علينا بمحمّد (ص). سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، وإنّنا إلى ربّنا لمنقلبون، والحمد لله ربّ العالمين»[70].

- **دعاء صعود الآكام والقناطر وعبور الجسور:** يقول الزائر: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، والحمد لله رب العالمين».

- **دعاء دخول الكوفة:** رُوي عن الإمام الصادق قوله عند دخول الكوفة قل: «بسم الله، وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملّة رسول الله. اللّهم أنزلنا منزلاً وأنت خير المنزلين»[71]. وتوجد أدعية أخرى عند باب

67- المرجع نفسه، ص255.
68- المرجع نفسه، ص ص257-258.
69- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص66.
70- المرجع نفسه، ص67.
71- المرجع نفسه، ص74.

المنزل، ودعاء الخوف من الهوام والسّباع، ودعاء خوف الشياطين، ودعاء خوف الأعداء واللصوص، وغيرها من الأدعية المحفّزة للزائر ضدّ الخوف والتردّد.

واستفادت الذاكرة الشيعيّة من الذاكرة الجمعيّة الإسلاميّة في بناء آداب السفر إلى الحج. وقد وردت شروط الزيارة التي استعرضناها في حديث لجعفر الصادق قال فيه: «يلزمك حسن الصحبة لمن يصحبك، ويلزمك قلّة الكلام إلّا بخير، ويلزمك كثرة ذكر الله، ويلزمك نظافة الثياب، ويلزمك الغسل قبل أن تأتي الحائر[72]، ويلزمك الخشوع وكثرة الصلاة على محمّد وآل محمّد، ويلزمك التوقير لأخذ ما ليس لك، ويلزمك أن تغضّ بصرك، ويلزمك أن تعود أهل الحاجة من إخوانك إذا رأيت منقطعاً، والمواساة. ويلزمك التقيّة التي قوام دينك بها، والورع عمّا نُهيت عنه والخصومة، وكثرة الإيمان، فإذا فعلت ذلك تمّ حجُّك وعمرتك»[73].

6- المبحث السادس: في أركان الزيارة

الأركان جمع ركن، وهي الشروط الأساسيّة لتمام الزيارة وقبولها.

أ- الإحرام:

هو نيّة الدخول في مناسك الزيارة نفسيّاً وبدنيّاً. وأفادنا بعض الزوّار أنّ الزائر مطالب بتحصيل علامة القبول عند بدء المناسك. وتحصل هذه العلامة بعد طلب الإذن من الإمام بوساطة التوسّل والدعاء لدخول المرقد. وتتمثّل علامة الإذن بالقبول في بكاء الزائر، أو الإحساس بالرقة، وهي حالة قريبة من البكاء. وإذا لم تحصل هذه العلامات، فلا بُدّ له من المكوث خارج المرقد لحصول العلامات المذكورة. ومن هنا تعدّدت مراحل زيارة الإمام مرحلة فمرحلة وصولاً إلى قبره.

ب- الولاء:

الوَلَاءُ لغة هو القرب، والدنوّ، والنصرة، والاتّباع. والوَلِيُّ هو المُحِبُّ والنَّصِيرُ. والوِلَايَة والوَلَايَة هي الخطّة، والإمارةُ، والسلطان[74]. وتشكّل هذه المعاني اللغويّة لجذر [و.ل.ي] أسّ المعنى الاصطلاحي في السياق الشيعي لمصطلح «**ولاء**». فالزائر مُطالبٌ بموالاة صاحب الإمامة، ومحبّته، ونصرته، واتباع شريعته. وقد بيّن جعفر الصادق فضائل ولاء الشيعي لأئمته في وصيّة لأبي السري سهل بن يعقوب بن إسحاق، الملقب بأبي نؤاس المؤذن. قال له: «يا سهل، إنّ لشيعتنا **بولايتنا** عصمة، لو سلكوا بها في لجّة

72- الحائر: مصطلح يطلق على البقعة التي تحتضن قبر الإمام الحسين بن علي، وشيئاً من أطرافه في كربلاء.

73- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص251.

74- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (ولي)، ص1344.

البحار الغامرة، وسباسب البيداء الغائرة، بين سباع وذئاب، وأعادي الجن والإنس، لأمنوا من مخاوفهم **بولايتهم** لنا، فثق بالله عزّ وجلّ، وأخلص في **الولاء** لأئمتك الطاهرين، وتوجّه حيث شئت، واقصد ما شئت. يا سهل، إذا أصبحت وقلت ثلاثاً: أصبحت اللّهم معتصماً بذمامك المنيع الذي لا يطاول ولا يحاول، من شرّ كلّ طارق وغاشم من سائر ما خلقت ومن خلقت من خلقك الصامت والناطق، في جنّة من كلّ مخوف بلباس سابغ، **ولاء** أهل بيت نبيك، محتجزاً من كلّ قاصد لي إلى أذيّة بجدار حصين، **الإخلاص** في الاعتراف بحقهم، والتمسّك بحبلهم جميعاً، موقناً بأنّ الحقّ لهم، ومعهم، وفيهم، وبهم، أوالي من **والوا**، وأجانب من جانبوا»[75].

ج- البراءة:

البراءة في اللغة المفارقة والابتعاد. وتبرّأ من الشيء: أنكره[76]. وقد ورد هذا المعنى على لسان علي لشيعته: «ألا إنّكم ستُعرَضون على سبِّي، فإن خفتم على أنفسكم فسبّوني، ألا، وإنكم ستعرضون على **البراءة** منّي، فلا تفعلوا فإنّي على الفطرة»[77]. وروى الطوسي عن عائشة بنت عبد الرحمن بن السائب، عن أبيها، قوله: «جمع زياد بن أبيه شيوخ أهل الكوفة وأشرافهم في مسجد الرحبة ليحملهم على سبّ أمير المؤمنين (ع)، و**البراءة** منه، وكنت فيهم، فكان الناس من ذلك في أمر عظيم»[78]. وأمّا اصطلاحاً في الثقافة الشيعيّة، فالبراءة هي إنكار ما تعرّض له العلويون من قتل وتشريد، ولاسيّما ما وقع للحسين في العاشر من محرّم. والبراءة من قتلة الحسين هي البراءة من الظلم والباطل، ومن إنكار حقّ العلويين في إمامة المسلمين سياسيّاً ودينيّاً.

تجدر الإشارة إلى أنّ الزوجين [ولاء/ براءة] يمثّلان مفهوماً متكاملاً في الذهنيّة الشيعيّة، فلا يمكن استحضار أحدهما بمعزل عن الآخر. ونجد هذا القرن بينهما في أغلب نصوص الزيارات. ومنها قول الزائر أمام قبر الحسين: «**بَرِئْتُ** إلى اللهِ وَإلَيْكُمْ مِنهُم، وَأتَقَرَّبُ إلى اللهِ ثُمَّ إلَيْكُمْ **بموالاتِكُمْ** وَمُوالاةِ وَلِيِّكُمْ وَ**البَراءةِ** مِنْ أعدائِكُمْ، وَمِنَ النّاصِبينَ لَكُمُ الحَرْبَ وَ**الْبَراءَةَ** مِنْ أشْياعِهِمْ وَأتْباعِهِمْ، إنّي سِلْمٌ لِمَنْ سالَمَكُم، وَحَرْبٌ لِمَنْ حارَبَكُمْ، وَوَلِيٌّ لِمَنْ والاكُمْ، وَعَدُوٌّ لِمَن عاداكُمْ»[79]. وروى الشيخ الصدوق عن صالح بن سهل المدائني عن الصادق قوله: «من أحبّنا وأبغض عدونا في الله من غير وتيرة وترها إيّاه لشيء من أمر الدنيا، ثمّ مات على ذلك، وعليه من الذنوب مثل زبد البحر، غفرها الله له»[80].

75- الطوسي، كتاب الأمالي، ص277.

76- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (برأ)، ص34.

77- الطوسي، كتاب الأمالي، ص364.

78- المرجع نفسه، ص619.

79- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص ص329-330.

80- الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص170.

د- الدعاء والتشفّع:

تكاد وظائف الزيارة تُختزل، عند الزائر الشيعي، في تحصيل ضمان شفاعة الإمام من كلّ الذنوب. وما لاحظناه ميدانيّاً أو وجدناه في نصوص المدوّنة، أو نصوص أخرى، يقين الزائر بأنّ الزيارة مناسَبةٌ لطلب الشفاعة، وتحقيق الخلاص في يوم الحساب. ويعتقد بأنّ الحضور عند الأئمّة والتشفّع في حضرتهم ضامنٌ لسلامتهم في اليوم الآخر. وأنّ الله سيغفر ذنوبهم مهما تعاظمت بسبب حبّهم لآل البيت، والولاء لهم. ولا يغيب عن ذهن الزائر أنّ ولاءه للإمام يقضي حوائجه الدنيويّة مثل دفع الفقر والمرض، وتحقيق النجاح. ولا ينسى الشيعي الزائر طلب الخلاص للمسلمين عامةً بدعائه لأجل ظهور الإمام المهدي المنتظر ليملأ الدنيا عدلاً، بعد أن مُلِئت جوراً وظلماً. ويعبّر الزائر عن هذه الرغبات مخاطباً الحسين: «اللهمّ ربّ الأرباب، صريخَ الأخيار، إنّي عُذْت معاذاً، ففكّ رقَبتي من النار، جئتك يا بن رسول الله وافداً إليك، أتوسّل إلى الله في جميع حوائجي من أمر آخرتي ودنيايَ، وبك يتوسّل المتوسّلون إلى الله في جميع حوائجهم، وبك يدرك أهل الثواب من عباد الله طلبَتَهم»[81].

هـ - الوداع:

جعلت نصوص المدوّنة الزيارة عملاً دائريّاً يرتبط أوّله بآخره حتى يبقى الزائر على وفائه لإمامه والولاء له. ورُوِي عن الصادق قوله في زيارة الرسول (ص): «إذا أردت أن تخرج من المدينة، فاغتسل، ثمّ ائت قبر النبي (ص) بعدما تفرغ من حوائجك، وقل: (اللّهمَّ لا تَجْعَلْهُ آخِرَ العَهْدِ مِن زيارَتي قَبْر نَبيِّكَ، فَإنْ تَوَفَّيتَني قَبلَ ذلك فَإنّي أشْهَدُ في مَماتي عَلى ما أشهدُ عَلَيهِ في حَياتي أنْ لا إلهَ إلّا أنْتَ وأنّ محمداً عَبدُكَ ورَسولُكَ)»[82].

ولئن جاءت نصوص الوداع متمايزة في نصوصها من حيث نوع الكلمات المستعملة، وترتيبها من إمام إلى آخر، فإنّها أجمعت على الالتزام بالعهد الذي قطعه الزائر أمام القبر، والذي يتأسّس على مقولتي الولاء والبراء. يقول الزائر: «أشْهَدُ أنَّكمُ الأئمّة (وتسمّيهم واحداً بعد واحد)، وأشهدُ أنَّ منْ قَتَلَهُمْ وحارَبَهُم مُشركونَ، ومنْ رَدَّ عَلَيْهِم في أسْفَلِ دَرَكٍ منَ الجَحيم، وأشهَدُ أنَّ مَنْ حارَبَهُمْ لنا أعْداءٌ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بُرَآءٌ، وَأنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطانِ، وَعَلى مَنْ قَتَلَهُمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أجْمَعينَ، وَمَنْ شَرِكَ فيهِمْ وَمَنْ سَرَّهُ قَتْلَهُم»[83]. ولا ينسى الزائر أن يلتزم أيضاً بالعودة إلى هذا المقام تعبيراً عن مصداق التزامه الأوّل والمهمّ في المشروع الثقافي الشيعي. ويقول الزائر في وداع علي: «اللّهُمَّ لا تَجْعَلْهُ آخِرَ الْعَهْدِ مِنْ زِيارَتي إيّاهُ، فَإنْ تَوَفَّيْتَني قَبْلَ

81- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص414.

82- المرجع نفسه، ص69.

83- المرجع نفسه، ص105.

ذلِكَ، فَإنّي أشْهَدُ في مَماتي عَلى ما كنتُ شَهِدْتُ عَلَيْهِ في حَياتي»[84]. ويقول في وداع الحسين: «اللّهُمّ لا تَجْعَلْهُ آخِرَ الْعَهْدِ مِنّا وَمِنْهُ [...] وَهذا أوانُ انْصِرافي عَنْكَ؛ غَيرَ راغِبٍ عَنْكَ، وَلا مُسْتَبْدِلٍ بِكَ سِواكَ، وَلا مؤثِرٍ عَلَيْكَ غَيرَكَ، وَلا زاهِدٍ في قُرْبِكَ»[85]ويتكرّر نصّ الوداع بالمعنى ذاته أمام قبور كلّ الأئمّة.

7- المبحث السابع: في الطواف بالمرقد

عند بحثنا عن الأعمال التي يقوم بها الزائر، عند حلوله بالمرقد، خلصنا إلى مجموعة من الملاحظات:

- تمثّل زيارة الحسين نموذجاً لباقي الزيارات؛ لذا لم يتمّ التفصيل في كيفيّة زيارة باقي المراقد، بما في ذلك قبر الرسول (ص).

- لم نجد توافقاً بين ابن قولويه، باعتباره مصدرنا الأوّل في دراسة طقوس الزيارة، وتلميذه الشيخ المفيد، والأصول الأربعة.

- قام الشيخ المفيد باختصار أدعية شيخه ابن قولويه، وهو ما جعلها أكثر عمليّة في المزارات، نظراً إلى اختلاف المستوى التعليمي من زائر إلى آخر، وقدرة الأفراد على الحفظ، أو اصطحاب الكتب المعدّة للغرض. وفصّل في بعض الأعمال والحركات التي أوردها ابن قولويه، كحركات اليدين، وموضعهما عند الدعاء، وعدد التكبيرات. وهذه سيرورة منطقيّة في تاريخ الأخبار.

- اخترنا اعتماد ما أورده ابن قولويه نتيجة استحالة التوفيق بين ما ورد فيه وبين ما ورد في بقيّة المصادر وأسبقيته الزمنيّة، وأخذ باقي المصادر المعتمدة عنه.

- حين استفسرنا حول هذه الاختلافات في عدد التكبيرات، مثلاً، وأيّ الأعمال تؤتى أوّلاً، وتأثيرها في قبول الزيارة، لم نجد له أهميّة في المستوى الإجرائي. وذكر لنا بعض الزوّار أنّ المهمّ في الزيارة الصدق والإخلاص في محبّة الأئمّة. ولا يرون مشكلاً في أن تكون تكبيرة زائدة، أو ناقصة، أو أن يسبق هذا العمل ذاك، ما دام العمل بالنيّات. ويؤكّد هذا الاستنتاج مجدّداً هيمنة الثقافة الشعبيّة على الثقافة الرسميّة؛ وإلغاء هذه الثقافة في المستوى التداولي بين أوسع شريحة من المجتمع المتديّن.

- اخترنا ألّا نورد الأدعية كاملة كما دوّنها ابن قولويه، والاقتصار على معناها، تجنّباً للإطالة إلّا ما وجدناه مناسباً.

84- المرجع نفسه، ص105.

85- المرجع نفسه، ص ص436-437.

- وجدنا أكثر من زيارة في المدوّنة، بشعائر تتمايز فيما بينها في عدد التكبيرات، وموضع تحرّك الزائر، وأقواله. واخترنا اعتماد الزيارة الأكثر عدداً من الشعائر؛ لما لمسناه من حرص لدى الزوّار على استحضار طقوس الحجّ، وما أوحت به نصوص المدوّنة من مماثلة بين الزيارة والحجّ، كما سنبيّن لاحقاً في الفصل الرابع من الباب الثالث، وتتمثّل أعمال الطواف فيما يأتي:

أ- السلام والشكر:

إلقاء التحيّة جزء من الثقافة الإسلاميّة، وإعلان عن لقاء بطرف آخر. ومن دلالات السّلام التبجيل والتوقير، وهذا ما يجب أن يقوم به الزائر عند بلوغ عتبة المشهد. وملخّص الدعاء المطوّل، الذي أورده ابن قولويه عن الصادق، هو شكر الله على تكريم الزائر بالزيارة، وإعلان شهادة التوحيد والولاء للأئمّة، وتخصيص الحسين بالسلام. هذا في المستوى النظري، أمّا في المستوى التطبيقي، فلم نلحظ التزاماً جماعيّاً من قبل الزائرين بهذا الدعاء تحديداً، بل يدعو كلّ فرد بما تجيش به نفسه. وعلى التمايز الحاصل في السلام على باب المرقد، فإنّ الأغلبيّة تستأذن بالدخول كما بيّنّا سابقاً في تعريف الإحرام.

ب- الدخول مع التكبير:

يقول ابن قولويه عند دخول الصحن: «ثمّ تمشي قليلاً، وتكبّر سبع تكبيرات»[86]. ثمّ يناجي الزائر ربّه، ويشكره على نجاحه في تحصيل الإذن بالزيارة، ثمّ يعلن البراءة من أعداء الإمام، والولاء له. وأضاف الشيخ المفيد الدخول بالرجل اليمنى[87]، وهي سنّة في الدخول عند المسلمين عامّة.

ج- الاتجاه نحو القبر مع التكبير:

بعد دخول الصحن، يواصل الزائر التكبير. وعدد التكبيرات، في هذه المرحلة، خمس تكبيرات، ثمّ يواصل الزائر مناجاة ربّه، ويسأله الثبات على حبّ الحسين وآل بيته. وجعل المفيد عدد التكبيرات أربعاً[88].

د- الالتصاق بالقبر مع التكبير:

يكبّر الزائر عند القبر ثلاث تكبيرات، ويضع يديه على القبر، يشهد على صدق الحسين، وأدائه الأمانة، وحسن الأخلاق والعمل. ولم يذكر المفيد مسألة التكبير عند القبر. وقال ابن قولويه: «ثمَّ كبّر ثلاث تكبيرات، وترفع يديك حتّى تضعها على القبر جميعاً، ثمَّ تقول:

86- المرجع نفسه، ص358.

87- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص92.

88- المرجع نفسه، ص94.

أَشْهَدُ أَنَّكَ طُهْرٌ طاهِرٌ مِنْ طُهْرٍ طاهِرٍ، طَهُرْتَ وَطَهُرَتْ بِكَ البِلادُ، وَطَهُرَتْ أَرْضٌ أَنْتَ بها، وَطَهُرَ حَرَمُكَ، أَشْهَدُ أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ، وَدَعَوتَ إِلَيْهما، وَأَنَّكَ ثَأْرُ اللهِ في أَرْضِهِ حتّى يَسْتَثِير لَكَ مِنْ جَميع خَلْقِه»[89].

هـ- وضع الخدّ على القبر مع الدعاء:

يقول ابن قولويه: «ثمّ ضع خدّيك جميعاً على القبر، ثمّ تجلس وتذكر الله بما شئت، وتتوجّه إلى الله فيما شئت أن تتوجّه، ثمّ تعود وتضع يدك عند رجليه، ثمّ تقول: صَلَواتُ الله عَلى رُوحِكَ، وَعَلى بَدَنِكَ، صَدَقْتَ، وأَنْتَ الصّادِقُ المصَدّقُ، وَقَتَلَ اللهُ مَنْ قَتَلَكَ بالأَيْدي وَالأَلْسُنِ»[90].

و- التوجّه إلى قبر علي بن الحسين:

قال ابن قولويه: «ثمّ تقبل إلى علي ابنه، فتقول ما أحببت. ثمّ تقوم قائماً، فتستقبل القبور، قبور الشهداء، فتقول: السَّلامُ عَلَيْكم أيُّها الشُّهداءُ، أَنْتُم لَنا فَرَط، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ، أَبْشِرُوا بمَوعِدِ اللهِ الَّذي لا خُلْفَ لَهُ، اللهُ مُدْرِكٌ لكُمْ وِتْرَكُمْ، وَمُدْرِكٌ بِكُمْ في الأَرْضِ عَدُوَّهُ، أَنْتُمْ سادَةُ الشُّهداءِ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ»[91].

ز- الصلاة عند قبر الحسين:

يشترط في الصلاة أن يكون القبر بين يدي المصلّي. ولم يتمّ تأكيد ضرورة استقبال القبلة المرتبطة بموضع الكعبة من المصلّي. وهذا ما يجعل فرضيّة اعتبار القبر هو القبلة الحقيقيّة للزائر الشيعي ممكنة. يقول ابن قولويه: «ثمَّ تجعل القبر بين يديك، ثمّ تصلّي ما بدا لك، ثمَّ تقول: جِئْتُ وافِداً إِلَيْكَ، وَأَتَوَسَّلُ إلى اللهِ بِكَ في جَميع حَوائِجي مِنْ أَمْرِ دُنْيايَ وَآخِرَتي، بِكَ يَتَوَسَّلُ المتوسِّلُونَ إلى اللهِ في حَوائِجِهِمْ، وَبِكَ يُدْرِكُ عِنْدَ اللهِ أَهْلُ التُّراثِ طَلِبَتَهُم»[92]. وروى ابن قولويه عن الصادق قوله: «مَن صلّى عنده رَكعتين لم يسألِ الله تعالى شيئاً إلّا أعطاه إيّاه»[93]. وتحدّث الشيخ المفيد عن ركعتين، فقال: «وانفل[94] إلى القبلة، فتوجّه إليها، وأنت في مقامك عند الرأس، فصلّ ركعتين تقرأ في الأولى منهما فاتحة الكتاب وسورة الرحمن، وفي الثانية الحمد وسورة يس، ثمّ تتشهّد وتسلّم. فإذا سلّمت فسبّح تسبيح فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلوات الله عليهما، واستغفر، وادعُ، ثمّ اسجد شكراً لله تعالى»[95].

89- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص360.

90- المرجع نفسه، ص360.

91- المرجع نفسه، ص360.

92- المرجع نفسه، ص ص360-361.

93- المرجع نفسه، ص248.

94- تنفّل: صلّ النوافل. القاموس المحيط، (نفل)، ص1064.

95- الشيخ المفيد، كتاب المزار، ص87.

ح- استقبال القبلة مع المشي والتكبير:

يكبّر الزائر إحدى عشرة تكبيرة متتابعة بتركيز وفي غير عجل مستقبلاً القبلة. ويحمد الله، ويشكره، ويشهد له بالوحدانيّة والملك، ثمّ يقول للإمام: «أشهد أنَّ لَكَ مِنَ اللهِ ما وَعَدَكَ مِنَ النَّصْرِ وَالفَتْحِ، وَأنَّ لَكَ مِنَ اللهِ الوَعْدَ الصّادِقَ في هَلاكِ أعْدائِكَ، وَتَمامَ مَوْعِدِ اللهِ إيّاكَ، أشْهَدُ أنَّ مَنْ تَبِعَكَ الصّادِقُونَ، الَّذينَ قالَ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى فيهم: أولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِندَ رَبِّهِم لَهُمْ أجْرُهُم وَنُورُهُم»[96].

ط- استقبال القبر مع التكبير:

يكبّر الزائر، في هذه المرحلة الأخيرة من الطواف بالمرقد، سبع تكبيرات في خشوع وحزن، ثمّ يوحّد الله في تذكير بأنّه هو المعبود الحقيقي، كما أكّد لنا بعض الزوّار. ثمّ يخاطب الإمام بمعانٍ شاملة تلخّص علاقته به القائمة على الولاء والبراءة. فيقول: «الحَمْدُ للهِ الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلم يَكُنْ لَهُ شَريكٌ في المُلكِ[97]، وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْديراً، أشْهَدُ أنَّكَ دَعَوتَ إلى اللهِ وَإلى رَسُولِهِ، وَوَفَيْتَ للهِ بِعَهْدِهِ، وَقُمْتَ للهِ بِكَلِماتِهِ، وَجاهَدْتَ في سَبيلِ اللهِ حَتّى أتاكَ الْيَقينُ، لَعَنَ اللهُ أمَّةً قَتَلَتْكَ [وَلَعَنَ اللهُ أمَّةً ظَلَمَتْكَ]، وَلَعَن اللهُ أمَّةً خَذَلَتْكَ، وَلَعَن اللهُ أمَّةً خَدَعَتْكَ، اللّهُمَّ إنّي أُشهِدُكَ بِالوِلايَةِ لِمَنْ والَيتَ، وَوالَتْهُ رُسُلُكَ، وأشْهَدُ بِالْبراءةِ مِمَّن بَرِئت مِنْهُ رُسُلُكَ، اللّهُمَّ الْعَنِ الَّذين كَذَّبُوا رُسُلَكَ، وَهَدَمُوا كَعْبَتَكَ، وَحَرَّفُوا كِتابَكَ، وَسَفَكُوا دِماءَ أهْلِ بَيْتِ نَبيِّكَ، وَأفْسَدُوا في بِلادِكَ، واسْتَذَلُّوا عِبادَكَ، اللّهُمَّ ضاعِفْ عَلَيهِم الْعَذابَ فيما جَرى مِنْ سُبُلِكَ وَبَرِّكَ وَبحرِكَ، اللّهُمَّ الْعَنْهُمْ في مُسْتَسِرِّ السَّرائِرِ وَظاهِرِ الْعَلانِيَةِ في أرْضِكَ وَسَمائِكَ»[98].

8- المبحث الثامن: في محظورات الإحرام للزيارة

الحظر هو المنع والحجر. جاء في القاموس «حظر الشيء عليه: منعه وحبسه»[99]. والمحظور في الإحرام لزيارة المراقد هو ما يمنع على الزائر قوله أو فعله. وقد حرصت نصوص المدوّنة على ترجمة طقس الإحساس بالحزن إلى ممارسة عمليّة. وأنكر الإمام الصادق، في أكثر من حديث مرويّ عنه، الإسراف في تنويع الزاد؛ لتعارضه مع ما يجب أن يصاحب الزيارة من إحساس بالألم والمرارة؛ لما وقع على أرض الطفّ في العاشر من محرّم. ورُوي عن الصادق قوله: «بلغني أنَّ قوماً أرادوا الحسين عليه السلام حملوا معهم السُّفَر فيها الحَلاوى، والأخبصة، وأشباهها، لو زاروا قبورَ أحبّائهم ما حملوا معهم هذا»[100]. وورد

96- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص ص361.

97- [الإسراء: 111].

98- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص361.

99- الفيروزأبادي، القاموس المحيط، (حظر)، ص377.

100- ابن قولويه، كامل الزيارات، ص ص248-249.

الحظر بخطاب أشدّ في قوله: «تَزورونَ خيرٌ من أن لا تزوروا، ولا تَزورونَ خيرٌ من أن تزوروا، قال: قلت: قَطعتَ ظهري، قال: تالله إنَّ أحدكم ليذهب إلى قبر أبيه كئيباً حَزيناً، وتأتونه أنتم بالسُّفَر، كلّا حتّى تأتونه شُعثاً غُبراً»[101]. ولم يترك المشرّع الأمر معلقاً، وأجاب عن نوعيّة الزاد حين استفتاه أحدهم: «أيُّ شيء نأكل؟ قال: الخبز واللّبن»[102]. ونهى الصادق أيضاً عن استعمال الطّيب أثناء أداء الشعائر؛ لما قد يحدثه ذلك من فرقة في الجماعة، وإحساس بعدم التجانس، وعدم المساواة. ونهى الصادق عن هذه المسألة أيضاً في حديثه عمّا يجب على المُحرم اجتنابه في الحجّ، قال: «وأمّا الطيب الذي يجب اجتنابه، فأربعة أشياء: المسك، والعنبر، والزعفران، والورس»[103].

9- المبحث التاسع: في أشهر المزارات الشيعيّة

يُذكر في الأدبيّات الشيعيّة المرقد والمقام أيضاً، والشّائع استعمال المرقد والمزار، وإن كان المقام «يُطلق في الغالب على أماكن وجود الأنبياء، والأئمّة، والأولياء، كمقام أمير المؤمنين علي عليه السلام، والنبي نوح عليه السلام في مسجد الكوفة، أو مقام الإمام الصادق عليه السلام، والإمام الكاظم عليه السلام في كربلاء المقدّسة»[104]. ويبدو أنّ غلبة استعمال مزار ومرقد يعود إلى سببين: السبب الأول تأكيد وجود أجساد الأئمّة في تلك الأماكن، في ظلّ الحديث عن إمكانيّة عدم وجودها لأسباب ذكرناها سابقاً، وفي ظلّ وجود مقامات مثل مقام الإمام الصادق في كربلاء، على الرغم من دفنه في مقبرة البقيع. ويتمثّل السبب الثاني، ويبدو الأهم، في حرص الأدبيّات الشيعيّة على التمايز مع غيرها. ويشيع استعمال مصطلح مقام بين العديد من الفرق والمذاهب الإسلاميّة لأوليائهم. لكنّ الفكر الشيعي لا يصرّح بذلك، وإن حرص عليه. ونلمس هذا التبرير لدى صاحب دائرة المعارف الحسينيّة، حين يقول: «والذي نريد قوله هو أنّنا اتبعنا سلفنا الصالح في التسمية لجهات عدّة، أهمّها غلبة المراقد على المقامات»[105].

ومن أهمّ المراقد مرقد الحسين بن علي في كربلاء، ويمثّل هذا الفضاء عند الشيعة «محور المراقد المقدّسة للهاشميين كلّ الهاشميين»[106]. وفي تقديرهم يقع هذا المرقد «في قلب العالم الإسلامي»[107]، ويُعدّ «بعد الحرمين الشريفين والغرّي[108]مركزاً دينيّاً جديداً جاثياً بين ضفّة الفرات وحافة الصحراء على مفترق

101- المرجع نفسه، ص ص250.

102- المرجع نفسه، ص249.

103- الطوسي: تهذيب الأحكام، كتاب الحج، 1936، باب ما يجب على المحرم اجتنابه في إحرامه، ح 6248.

104- الكرباسي، محمّد صادق محمّد، دائرة المعارف الحسينيّة، تاريخ المراقد، ج1، ص13.

105- المرجع نفسه، ج1، ص14.

106- المرجع نفسه، ج1، ص14.

107- المرجع نفسه، ج1، ص14.

108- الغري: نصب كانت تذبح عليه العتائر، والكوفة قرب قبر علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص196.

الطرق من العالم القديم؛ ليمدّ أنوار النبوّة المشعّة من المدينة المنوّرة إلى بقيّة أقطار العالم الإسلامي»[109]. وإلى الشرق من كربلاء يوجد مرقد علي بن موسى الرّضا في خراسان من بلاد فارس، ولا يقلّ هذا المرقد قيمة عن الأوّل في الفكر الشيعي؛ لأنّ وجوده في أقصى الشرق الإيراني «يبعث بهذا النور [نور النبوّة] في الاتجاهات المختلفة الأخرى من مصدره في المدينة المنوّرة، والنجف الأشرف، وكربلاء المقدّسة»[110]. أمّا في الحجاز، فتمثّل مقبرة البقيع المزار الأهمّ عند الشيعة. وقد ربط الفقه الاثنا عشري بين زيارة هذه المقبرة، وأعمال الحجّ والعمرة. ويُروى عن جعفر الصادق، في هذا السياق، قوله: «ابدؤوا بمكّة واختموا بنا»[111].

ولا يقتصر انتشار المزارات على العراق، باعتباره المسرح الأكبر لمقاتل الطالبيين، وإنّما انتشرت في أماكن عدّة من العالم. وارتبط انتشار هذه المراقد بمجموعة من الأسباب أهمّها النشاط السياسي والثقافي للعلويين، الذي تأسّس على جهود البعثات الدعويّة. وتمثّل مصر أحد أهمّ الأماكن المحتضنة للمراقد الشيعيّة. ويوجد فيها مسجد للحسين بن علي بن أبي طالب، ومقام لرأسه يُعتقد أنّه دفن فيه، ومرقد لأخته زينب، ومسجد ومرقد لنفيسة ابنة زيد بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي، ومرقد لزوجة إسحاق بن جعفر الصادق[112].

وتوسّع ياقوت في ذكر المزارات المتنوّعة في مصر، ولم يقتصر على الأماكن الإسلاميّة، فتاريخ هذا البلد طويل، وشهدت أرضه مراحل مهمّة من تاريخ الظاهرة الدينيّة. قال ياقوت: «بمصر من المشاهد والمزارات: بالقاهرة مشهد به رأس الحسين بن علي، رضي الله عنه، نقل إليها من عسقلان لمّا أخذ الفرنج عسقلان، وهو خلف دار المملكة يزار، وبظاهر القاهرة مشهد صخرة موسى بن عمران، عليه السلام، به أثر أصابع يقال إنّها أصابعه فيه اختفى من فرعون لمّا خافه، وبين مصر والقاهرة قبّة يقال إنّها قبر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ومشهد يقال: إنّ فيه فاطمة بنت محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقبر آمنة بنت محمّد الباقر، ومشهد فيه قبر رقيّة بنت علي بن أبي طالب، ومشهد فيه قبر آسية بنت مزاحم زوجة فرعون، والله أعلم، وبالقرافة الصغرى قبر الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وعنده في القبّة قبر علي بن الحسين بن علي زين العابدين، وقبر الشيخ أبي عبد الله الكيراني، وقبور أولاد عبد الحكم من أصحاب الشافعي، وبالقرب منها مشهد يقال: إنّ فيه قبر علي بن عبد الله بن القاسم بن محمّد بن جعفر الصادق، وقبر آمنة بنت موسى الكاظم في مشهد، ومشهد فيه قبر يحيى بن الحسين بن زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقبر أم عبد الله بنت القاسم بن محمّد بن جعفر الصادق، وقبر عيسى بن عبد الله بن القاسم بن محمّد بن جعفر الصادق، ومشهد فيه قبر كلثوم بنت القاسم بن محمّد بن جعفر الصادق،

109- المرجع نفسه، ج1، ص15.

110- المرجع نفسه، ج1، ص15.

111- الفروع من الكافي، ج4، أبواب الزيارات، باب فضل الرجوع إلى المدينة، ح8060، ص633.

112- خسروشاهي، سيد هادي، أهل البيت في مصر، تحقيق شوقي محمّد، مركز التحقيقات والدراسات العلميّة التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، 1428هـ/2006م، ط1، ص24.

وعلى باب الكورتين مشهد فيه مدفن رأس زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي قتل بالكوفة، وأحرق، وحمل رأسه فطيف به الشام، ثمّ حمل إلى مصر فدفن هناك، وعلى باب درب معالي قبّة لحمزة بن سلعة القرشي، وعلى باب درب الشعارين المسجد الذي باعوا فيه يوسف الصدّيق، عليه السلام، وبها غير ذلك ممّا يطول شرحه، منهم بالقرافة يحيى بن عثمان الأنصاري، وعبد الرحمن بن عوف، والصحيح أنّه بالمدينة، ولا أعرف اسميهما، وقبر روبيل بن يعقوب، وقبر اليسع، وقبر يهوذا بن يعقوب... ولو أردنا حصرهم لطال الشرح»[113].

113- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص142-143.

قائمة المصادر والمراجع:

- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمّد النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1979م.

- الحارثي، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان (المعروف بالشيخ المفيد)، كتاب المزار، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي، قم، ط1، 1409هـ/1988م.

- الحلّي، جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر: نهج الحقّ وكشف الصدق، منشورات دار الهجرة، إيران، ط4، 1414هـ.

- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي: معجم الأدباء، تحقيق ونشر دافيد صموئيل مرجليوث، دار المستشرق، بيروت، (د.ت).

- الشيخ الصدوق، محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تحقيق علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق، طهران، 2004م.

- الشيخ المفيد:

- تصحيح اعتقادات الإماميّة، دار المفيد، بيروت، 1414هـ/1993م.

- مكارم، سامي، التقيّة في الإسلام، مؤسّسة التراث الدرزي، بيروت، 2004م.

- الطوسي، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن علي بن الحسن (المشتهر بشيخ الطائفة والشيخ الطوسي):

- تهذيب الأحكام، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط1، 2005م.

- مصباح المتهجد وسلاح المتعبّد، مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت، ط1، 1411هـ/1991م.

- العزومي، محمّد خميس، التقيّة ضوابط وأحكام، دار الصفوة، بيروت، 2009م.

- الفيروزأبادي، مجد الدين محمّد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث بمؤسّسة الرسالة، إشراف: محمّد نعيم العرقسوسي، مؤسّسة الرسالة، ط8، 1426هـ/2005م.

- الفيض الكاشاني، محمّد بن مرتضى بن محمود (المشهور بالفيض والمحسن الكاشاني):

- تفسير الصافي، شركة مكتبة الألفين، الكويت، 1427هـ/2006م.

- القمّي، عبّاس: مفاتيح الجنان، تعريب حسين الأحمدي القمّي، تصحيح أحمد السعيدي وأحمد رضا الفيض، قم، 1428هـ/2007م.

- الكرباسي القرآن الكريم.

- القمّي، أبو القاسم جعفر بن محمّد بن جعفر بن موسى بن قولويه، **كامل الزيارات**، تحقيق جواد القيومي، نشر الفقاهة، قم، ط5، 1429هـ/2008م.

- القمّي، سعيد محمّد بن محمّد مفيد، شرح توحيد الصّدوق، صحّحه وعلّق عليه: نجفقلي حبيبي، طهران، ط1، 1415هـ/1994م.

- محمّد صادق محمّد، دائرة المعارف الحسينيّة، تاريخ المراقد، الحسين وأهل بيته وأنصاره، المركز الحسيني للدراسات، المملكة المتحدة - لندن، ط1، 1419هـ/1998م.

- الكليني وغيره، الأصول الأربعة: (كتاب الكافي للكليني، ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق، وتهذيب الأحكام، والاستبصار في ما اختلف من الأخبار لمحمّد بن الحسن الطوسي)، تحقيق: صادق بزركر بفرويي، مؤسّسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، ط1، 1424هـ/2003م، (في جزأين).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018